لا يكاد يذكر لبنان إلّا ذكر معه الأرز، ولا عجب فلبنان قد تفرّد في القدم بهذا النوع من الشجر البديع في تكوينه، العجيب في صلابته التي تهزأ بالعناصر والسنين ولا تقوى عليها إلّا الصواعق والفأس والمنشار. لذلك أصبحت الأرزة على ألسنة الشعراء رمز الخلود، ولذلك اتخذها لبنان شارة مجد وكرامة. ولا شك في أن أعالي لبنان كانت تكتسي من زمان بغابات كثيفة من الأرز فتزيد في روعته وجلاله. أما اليوم فلم تُبقِ يد الأسلاف منها إلّا على بقيّة ضئيلة في جبل الأرز وجبل الباروك. ومن الأكيد أن عمر بعض الأشجار من تلك البقيّة يرقى إلى ما قبل المسيح.

تمنّيت لو يعود الأرز إلى سالف مجده في لبنان. ولكن في هذه الأمنية ما يذكرني بأن لبنان ليس جبالاً شامخة، وأودية سحيقة، ونسمات منعشات، وينابيع دفّاقة، وبحراً موّاجاً، وسماءً زرقاء، وعطوراً زكيّة لا أكثر. بل هو، إلى ذلك، مليون وبعض المليون من نساء ورجال بين كهول وشباب، وشيوخ وأطفال، ورعية وحكام، وهو مزيج غريب من الأجناس والأديان. وقديماً قيل: «السرّ في السكان لا في المكان». فماذا عساني أقول في سكان لبنان؟

من شاء أن يعرف اللبناني الصميم عليه أن يتغلغل في